المحور الثاني: التقليد والتجديد في الأدب الأندلسي

- تقديم

كان الهدف من فتح العرب للأندلس نشر الدعوة الإسلامية، لذلك لم يقتصر الفتح على مظهره العسكري فقط، بل صاحبه أيضا نقل المسلمين لكل مكونات ثقافتهم وعلومهم وفكرهم وأدبهم، وهو ما أسهم في اتساع دائرة مكتسبي الثقافة الإسلامية من طلاب من أجناس وديانات مختلفة، وهو ما يعكس الوجه المتسامح للإسلام كدين مُؤَسَّس على المعاملة بالعدل والحسنى.

وقد شكلت اللغة العربية بعلومها وآدابها أبرز محاور اهتمام الأندلسيين، علاوة على باقي العلوم من شريعة وفقه، لذلك عمد الخلفاء إلى استقدام مجموعة من الشخصيات الفكرية والأدبية من المشرق، أمثال زرياب (تلميذ الموصلي) وأبي علي القالي البغدادي. وقد شكلت فترة حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر (300هـ/350هـ) فترة الذروة، حيث عرفت الأندلس ازدهارا كان من تجلياته بناء المكتبة العظيمة. أما عصر ملوك الطوائف، فد شهد سوقا للآداب والفنون، أما عصر المرابطين والموحدين فلم تتوقف حركة الثقافة بالأندلس، بل عرفت نموا مطردا كذلك.

أما فترة الانحسار السياسي، والتي اقتصرت فيها حكم المسلمين على غرناطة، فإنها لم تعرف خبوا على المستوى الفكري والثقافي، بل تواصلت الحركة الفكرية وهو ما تشهد عليه الدواوين الشعرية لشعراء المرحلة، دون أن نغفل الإشارة إلى المرأة وموقعها ضمن الحركة الثقافية والشعرية، فقد عرفت الأندلس وجود شاعرات نبغن في الشعر وفي غيره من فنون الآداب، وقد خلد التاريخ أسماء العديد منهن نكتفي هنا بالإشارة إلى ولادة (484هـ) بنت الخليفة المستكفي (ت 416هـ). (رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، ص 43-44).

1- الفنون التقليدية في الشعر الأندلسي

حافظ الأندلسيون في نظمهم للشعر على مختلف الأغراض التي عرفت في الشعر العربي كالمدح والهجاء والغزل والمجون والزهد والرثاء، وقد عملوا على تطوير موضوع الرثاء فابتكروا "رثاء المدن والمماليك"، كما توسعوا في وصف الطبيعة الأندلسية التي عرفت بأزهارها وحدائقها الغنّاء، كما ابتكروا فن الموشحات والأزجال.

أ- شعر الغزل

تُعرف البيئة الأندلسية بجمالها وسحر طبيعتها، وهذا التحول كاف ليثير في الشعراء مشاعر الحب، لذلك اتخذوا من الغزل كفن من الفنون التقليدية مدخلا لبناء القصيدة، أو لبناء قصائد مستقلة بالغزل. كما أسهم التنوع السكاني حيث اجتماع عدة أعراق وثقافات

(عربية، بربرية، إسبانية)، في إثارة انتباه الشعراء نحو جمال النصرانيات ليظهر هذا النوع من الغزل؛ وفي هذا السياق يورد المقَّري قوله:" إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودا، ومن النرجس عيونا، ومن الآس أصداغا، ومن السفرجل نهودا، ومن قصب السكر قدودا، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضابا". (انظر: نفح الطيب، ج2، ص. 323).

ب- المدح

حافظ الشعر الأندلسي على فن المدح كما كان في المشرق، فقد كانت بنية قصيدة المدح في الأندلس صورة مصغرة عن سابقتها بالمشرق، حيث بنيت انطلاقا من الاستهلال وحسن التخلص، مع بعض الاستثناءات كالافتتاح بالخمر ووصفه أو وصف الطبيعة، أما على مستوى بنية اللغة فقد حافظوا على طابعها البعيد عن الغريب إلا إذا استثنينا تأثير المتنبي الظاهر في شعر ابن هانئ (ت362هـ).

ج-**الهجاء**

كما استقدم الأندلسيون المدح من المشرق، كان من الطبيعي أن يستقدموا الهجاء، غير أن في هجائهم على مستوى البناء ما يخالف شعر المشارقة. فقد اعتاد المشارقة على الأهاجي الطوال، في حين كان هجاء الأندلسيين عبر المقطّعات، وهو ما يمكن رصده في شعر ابن خفاجة الأندلسي. (الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص 245).

د-**الزهد**

لم تكن الحياة في الأندلس في مأمن من غوائل الزمن وصروفه، بل كانت مشوبة بكثير من الاضطراب، وكلها عوامل إلى جانب التأثر بالمشرق من شأنها أن توفر أرضية خصبة لوجود شعراء زُهّاد جرفتهم "فوضى الحياة السياسية، وزادت في حب الخلاص لدى الفرد من غوائل الحياة، وشجعته على طلب النجاة لنفسه حين كان يرى الأوضاع الاجتماعية تزداد سوءا، وأصبح الزهد لدى بعض أصحابه مذهبا أدبيا أخلاقيا معا كما عند أبي العتاهية"(انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 130). وقد عرف في الفترة من شعراء الزهد، أبو القاسم السميسر، ابن الحداد، أبو إسحاق الألبيري والطليلطل.

هـ-المجون

لم تكن ظروف الفتوح والغزوات تسمح بظهور شعر المجون في الأندلس، فقد انشغل الناس بتأسيس كيان الدولة، إلى جانب ما كان يشكله الوازع الديني من معيق أمام ظهور شعر

يختلط فيه الهزل بالجد، غير أن التحول السياسي في الأندلس خاصة في عصر الملوك والطوائف، حيث تراجع الدولة وانحدارها، سمح بوجود شعراء كان شعرهم مزيدا من المجون والخلاعة والتهتك، بل لم تسلم فرائض الدين من الاستهتار، لتظهر بعد ذلك مجالس اللهو والغناء، وقد عرف من الشعراء في تلك المرحلة كل من أبي عبد الله محمد بن مسعود، وأبي عبد الله الأزرق، وأحمد بن طلحة.

و-الرثاء

يعد الرثاء من الأغراض الشعرية القديمة التي امتدت لتصل إلى الشعر الأندلسي، فقد كان للشعراء في الأندلس نصيبهم من شعر الرثاء، حيث يصفون الموت ويتحدثون عن فواجعه مستأنسين بما كان في شعر المشارقة من افتتاح بالحكمة، وقد عرف من شعراء الأندلس في الرثاء عبد المجيد بن عبدون وأبو العباس الإشبيلي وابن حمديس الصقلي...

2-التجديد في الشعر الأندلسي

أ-وصف الطبيعة (شعر الطبيعة)

كان وصف الطبيعة بكل مكوناتها جزءا من الشعر العربي القديم، فقد كان شعراء الجاهلية يصفون بيئتهم الصحراوية وما عليها من إبل وخيل ونباتات ونجوم وكواكب وسهول وجبال وديار وأطلال...والجدير بالذكر أن شعراء المشرق لم يخصوا وصف الطبيعة بقصائد مستقلة، بل جعلوا هذا الوصف عنصرا من عناصر بناء القصيدة. غير أن الأندلسيين، وبالنظر إلى جمال الطبيعة في الأندلس، قد خصصوا قصائد كاملة لوصف الطبيعة والحدائق والأنهار، لتصير قصيدة الوصف مستقلة بذاتها، كما مزجوا الوصف بأغراض شعرية أخرى كالرثاء أو التحسر، وهذا المزج إلى جانب استقلال قصيدة وصف الطبيعة يعتبران أهم مظاهر التجديد التي عرفها الشعر الأندلسي مقارنة بشعر المشارقة.

وقد قسم الدراسون مراحل تطور شعر الطبيعة بالأندلس إلى مرحلتين: **أولى** هي امتداد لسابقتها المشرقية، لذلك عرفت ب مرحلة النزوع إلى الطبيعة المشرقية، وكان روادها شعراء المشرق الذين انتقلوا إلى الأندلس وكذلك أبناؤهم. ويمثل عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) نموذجا لهذه المرحلة. ثانية وهي بداية تأسيس مدرسة أندلسية في وصف الطبيعة، لذلك يطلق عليها مرحلة الاستجابة للطبيعة الأندلسية.

أ.1-مرحلة الامتداد (النزوع نحو الطبيعة المشرقية)

بعد نزوحه إلى الأندلس، ظل عبد الرحمن بن معاوية مرتبطا بشخصيته المشرقية، لذلك اعتبر ممثلا لهذا الامتداد المشرقي سواء على مستوى الحكم أو على مستوى ثقافته الشعرية. فقد كان جالسا ذات مرة على شرفة قصره، فلفتت نظره نخلة كانت موجودة بإحدى ضواحي الأندلس(شمالي قرطبة) واسمها الرصافة، وقد سميت كذلك نسبة إلى رصافة بغداد، فكانت تلك النخلة شبيهة بقصته بعد أن هاجر من المشرق فارا من العباسيين، فالنخلة قد اقتُلِعت من أرض الآباء والأجداد، ليشبه حالها حال عبد الرحمن بن معاوية، فكتب يقول:

يا نخل أنت غريبة مثلي****في الغرب نائية الأصل

فأبكي وهل تبكي مكَبسةٌ****عجماء لم تُطبع على خبل

لو أنها تبكي إذن لبكت****ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها ذهلت وأذهلني****بغضي بني العباس عن الأهل

- **إضاءة لأبيات عبد الرحمن بن معاوية**

بدأ الشاعر قصيدته بتفخيم اسم النخلة من خلال صيغة النداء حيث اختار صيغة الجمع بدل المفرد تفخيما وتعظيما، في حين اختار الحديث عن نفسه بصيغة المفرد (مثلي) تواضعا، في الغرب نائية عن الأصل أي أنت غريبة مثلما أني غريب، فقد اقتُلِعْت من أرض الآباء والأجداد وأنت كذلك.

أما البيتان (2و3)، فأبكي حيث يعبر عن نعمة البكاء التي تخفف عن الإنسان كلما ألمَّ به ما يحزنه، في حين أن النخلة جماد (مكبسة، عجماء) لا يمكنها البكاء، ولو كانت قادرة لبكت الماء الكثير الذي كانت ترتويه من المشرق، ولبكت على الفرات الذي كان مصدر سقيها، وأيضا لبكت على أرض الآباء والأجداد حيث النخل الكثيف.

- البيت 4 يصف حالة ذهول النخلة لما حل بها، كذهول الشاعر لما حل به.

وحتى تكتمل الصورة، سنأخذ مثالا آخر-لعبد الرحمن بن معاوية- يؤدي تقريبا المعنى نفسه، حيث تعتبر هذه القصيدة تأكيدا للقصيدة الأولى، فيما يخص علاقة الشبه بين الشاعر والنخلة في البعد عن الأهل، يقول:

تبدّت لنا وسط الرُّصافِة نخلـةٌ***** تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغّرب والنَّوى***** وطُول ابتعادي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبةٌ***** فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

فالقصيدة ترصد روابط القربى بين الشاعر عبد الرحمن بن معاوية والنخلة حين كانا سويا في بلاد الشام، حيث كان بين ذويه وكانت النخلة بين النخيل، فاستجلبها معه نحو الأندلس وأشاع زراعتها لتصير أيقونة في شعره ترمز لوطنه وتذكره بالماضي المشرق، فالنخلة في بلاد الأندلس صلة وصل بين الأرض القديمة والأرض الجديدة في أوربا الإسلامية. (رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، ص 113-114).